

الفصل الثالث

ملاحظات على كتب الغزالي

ظهر لى أثناء الاطلاع على كتب الغزالي هذه الملاحظات :

أولاً : أن الشاك الذى اعترى الغزالي ، كان له تأثير كبير فى تنظيم حياته العلمية . فالغزالي شك ، وكان شكه مبكراً على قرب عهد بسن الصبا . فنظر إلى الفرق الموجودة فى عهده ، وحصر الحق خلالها . ثم نظر فيها على هذا الترتيب :

١ — علم الكلام . وألف فيه ما شاء الله أن يؤلف .

٢ — الفلسفة العقلية . وألف فى نقدها ما شاء الله أن يؤلف .

٣ — مذهب أهل التعليم . وألف فى نقده كذلك .

٤ — التصوف أو الفلسفة الروحية . وألف فى تأييدها ونصرتها أيضاً .

ولقد حدد لنا موقفه من هذه الفرق جميعاً . فبهذا نستطيع ، إذا وقع فى يدنا كتاب من كتب الغزالي ، أن نعرف على وجه التقريب متى ألفه ، والروح المسيطرة عليه .

فمثلاً كتاب « ميزان العمل » أعيانى أمره ، وحاولت طويلاً أن أعرف متى ألفه ، فلم يتيسر لى ذلك إلا بعد جهد جهيد .

ذلك أن الغزالي نص فى أوله ، على أنه ألفه على نمط كتاب آخر ، اسمه « معيار العلم » إذن لابد أن يكون « معيار العلم » هذا ، سابقاً على « ميزان العمل » . ولكن متى ألف الغزالي « معيار العلم » ؟

بعد البحث الشاق . وجدت الغزالي ينص فى كتابه « تهافت الفلاسفة » على أنه ألف بصحبته — أى التهافت — كتاباً فى المنطق هو « معيار العلم » .

ولكن متى ألف الغزالي كتابه « التهافت » ؟

ينص « الغزالي » في « المنقذ » على أن كتبه التي رد فيها على الفلاسفة العقليين ألفها في بغداد .

فيكون إذن كتاب « ميزان العمل » مؤلفاً في بغداد . أو في ما طاف فيه « الغزالي » من البلدان بعد الخروج من بغداد ، أو فيما بعد ذلك أيضاً ، حين ألقى عصا التسيار نهائياً .

وهذه معرفة عامة ، مع ما أحيطت به من صعاب .

أما الآن ، وبعد معرفة تاريخ « الغزالي » الفكرى ، الذى نظمته شكه ؛ وبعد معرفة موضوع كتاب « ميزان العمل » ، وأنه لشرح وتأيد مذهب المتصوفة . فنستطيع أن نعرف أن « الغزالي » ألفه في أخريات أيامه . بعد أن اهتدى إلى نظرية الكشف الصوفية ، وبعد أن ارتضى منهجهم في طلب الحقيقة ، فراح يعمل لتأييده ونشره بالكتب المختلفة والدروس المتنوعة .

ثانياً : كان المنظور أن الغزالي ، بعد أن اهتدى إلى نظرية الكشف الصوفية ، التى جعلته في مصاف أولئك الذين يطلعون على اللوح المحفوظ . ويدركون أرواح الأنبياء ، ويخاطبون الملائكة ، لا يعالج مسائل ما وراء الطبيعة بالعقل ؛ بعد ما لم تصبح له به حاجة ، وبعد ما قضى عليه بالفشل والعجز ، عن أن يحل مشاكل ما وراء الطبيعة .

ولكننا نراه يزج بالعقل أحياناً في كتبه ، التى ألفها بعد اهتدائه إلى الكشف الصوفى^(١) ، حتى ليخيل إلى القارئ ، أنها نتاج العقل الخصب . ووليدة الفكر الصرف .

فتلا بحثنا عن مسائل هامة ، كان لها خطرهما في التصوف وفى الفلسفة على العموم^(٢) ، فيقص علينا حقيقة الأمر فيها كما أدركها فيقول^(٣) :

[وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب — يعنى بين الواصل وبين الله — ، يكاد يتخيل معه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ؛ وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب « المقصد الأسنى » ...] .

(١) ككتاب « معارج القدس » وكتاب « المقصد الأسنى » .

(٢) هى مسائل الحلول والاتحاد .

(٣) ص ١٣٢ « المنقذ » .

وإذا انتقلنا مع الغزالي إلى هذا البحث ، في كتاب « المقصد الأسنى » ، وجدناه يقول عن الاتحاد وبيان استحالة^(١) :

[إن قول القائل : إن شيئاً صار شيئاً آخر ، محال على وجه الإطلاق ؛ لأننا نقول : إذا عقل زيد وحده ، وعمره وحده ، ثم قيل : إن زيداً صار عمرأ ، واتحد به ، فلا يخلو — أى الحال — عند الاتحاد .

إما أن يكون كلاهما موجودين .

أو كلاهما معدومين .

أو زيد موجوداً ، وعمره معدوماً .

أو بالعكس .

ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة .

فإن كانا موجودين ، فلم يصح أحدهما عين الآخر ، بل عين كل واحد منهما موجود .

وإن كانا معدومين ، فما اتحدا ، بل علما ، ولعل الحادث شئ ثالث .

وإن كان أحدهما معدوماً ، والآخر موجوداً ، فلا اتحاد ، إذ لا يتحد موجود بمعدوم .

فالإتحد بين الشئين مطلقاً محال [.

وتكلم أيضاً في نفس الكتاب^(٢) عن الحلول كلاماً شبيهاً بهذا .

وهذا بحث عقلى صرف ، واحتكام إلى العقل المحض ، مع أنه يحدثنا في عبارة « المنقذ » ، أنه أدرك ذلك عن طريق الكشف ؛ ومع أنه القائل فيما سبق :

[إن العقل ليس له مجال ، في مسائل ما وراء الطبيعة ، أكثر من إثبات ذات

لمرسل ، والنظر في دليل المعجزة ، وما وراء ذلك فالعقل معزول عنه بالكلية [

فهل الغزالي متناقض مع نفسه ؟ ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس ؛ أم له في

هذا وجهة نظر ؟ !

الواقع أن الغزالي متنبه للأمر ، وله وجهة نظر .

(١) ص ٧٣ .

(٢) ص ٧٥ .

وليس أدل على تنبيه للأمر : من أنه لما أقحم هذه النظرة العقلية ، بين مسائل هي نتاج الكشف والمعاينة ، لانتاج العقل ، لم ير بدءاً من أن يبين في نفس الكتاب ، صلة العقل بالكشف فقال :

[إن العقل لا يصطدم مع الكشف في شيء ، غاية ما هنالك ، أن العقل لضعفه وقصوره ، يعجز أحياناً عن أن يبدي الرأي في مسألة ما ، فيسغفه الوحي أو الإلهام بتبيانها ، فتارة يدرك العقل وجه الحكمة فيها ، وهنا يستطيع أن يشد من أزر الوحي والإلهام ، بما يمكنه من فنون الأدلة الفكرية ، وضروب المحاولات العقلية .

وتارة لا يدرك وجه الحكمة ، فيقف صامتاً لا يملك المساعدة ، وليس معنى هذا ، القول باستحالة المسألة عنده ، ففرق كبير بين ما يعجز العقل عن إدراكه ، وبين ما يدرك وجه استحالته] .

فالغزالي بهذا ، يريد أن لا يستغنى عن العقل كلية ، بل يجعله — كلما أمكن — شارحاً للكشف والإلهام .

وهذا يفسر لنا الظاهرة التي تبدو في بعض كتب الغزالي ، كمعارج القدس ، والتي كانت جديرة بأن تثير منا الدهشة والاستغراب ، تلك هي مؤازرة العقل لوجهات النظر التي يبثها الغزالي في كتبه التي ألفها في عهده الأخير ، بعد الاهتمام إلى نظرية الكشف الصوفية .

إذ كان المنظور أن يصور الغزالي مسائل هذه الكتب بقوله :

« كوشفت بكذا ، وشاهدت كذا ، وعانيت كذا » ولكنه لم يفعل بل حاط مسأله ونظرياته ، برعاية العقل وكلاءته ، حتى ليخيل إلى الناظر الذي لم يدرس الغزالي ، ولم يعرف من أمره ما عرفنا ، أن هذه المسائل وليدة العقل المحض .

أما الآن فنستطيع أن نقول : إن موقف العقل من هذه المسائل ، ليس موقف المخترع المبتدع ، وإنما هو موقف المساعد ، الذي لعب الدور الأخير ، أما الدور الأول ، فقد قام به الكشف والمعاينة .

وفي اختصار يريد الغزالي ، أن يجعل العقل شارحاً لمكاشفاته وإلهاماته

ولعل هذا هو السبب في اعتبار الغزالي - فيما سبق - المنطق ضرورياً للمعرفة ، حتى للنبي والولي^(١) .

فما دام الكشف بحاجة إلى شرح العقل له ، حين يراد عرضه على الغير في صهرة مقبولة ؛ وما دام العقل لا يؤمن عليه العثار والزلزل ، إلا إذا اعتصم بالمنطق واهتدى بهديه ، يصبح المنطق ضرورياً للكشف والإلهام .

بيد أن هذا لا يعنى الغزالي من نقدنا الآتى . فإن هذا إن صح أنه ملحوظ للغزالي ، فلن ينتج أكثر من أن معلومات الكشف والإلهام ، حين يراد إعلام الغير بها ، تحتاج إلى المنطق . لا أن صاحب الكشف والإلهام يحتاج لكى يتم له الكشف والإلهام ، إلى المنطق .

والغزالي فيما سياتى - حيث اعتبر الجهل بالمنطق بعض الحجاب المانع عن الكشف - ادعى الثانية لا الأولى .

ثالثاً : عرفنا فيما سبق ، أن كتب الغزالي تدور كلها حول موضوع واحد ، ونزيد الآن أن هذه الكتب - بينها روابط أخرى غير هذه الرابطة ، منها :

١ - التكرار :

فالشاهد أو المثال . تجده في الكتب المتعددة ، بنصه وصياغته ؛ مما يجعل القارئ عند قراءة الكتاب الثانى مباشرة ، يستطيع أن يدرك أنه للغزالي ؛ لأنه سوف يجد الأمثال والشواهد ، التى صادفته فى الكتاب الأول ، هى بعينها فى الكتاب الثانى .

فمثلاً قوله : [وكم أحق يتكاسى ، فيقايس نفسه بصاحب الشرع ، مقايسة الملائكة بالحدادين . فيهلك من حيث لا يدرى] . مذكور فى مواضع كثيرة

(١) ولعل ذلك ، لأنه يقدمها لأناس ممتازين ، اشترط فيهم شروطاً خاصة . وطبيعى أن هؤلاء الأشخاص ، لم يصلوا إلى درجة الكشف ، التى وصل إليها الغزالي ، وإلا لما كانوا فى حاجة إلى الأخذ عنه فهم إذن فى طور دون طور المكاشفة ، وليس دون ذلك مباشرة ، إلا العقل الصافى المستنير .
لذلك هو يحاول أن يجعل تلك المعارف ، متأخية مع العقل ، ومتشعبة معه ؛ حتى يتأتى الانتفاع بها .

من كتاب الإحياء ، وهو المذكور في كتابه « معارج القدس ^(١) » وفي كتابه « ميزان العمل ^(٢) » .

وأحياناً لا يقتصر التكرار على الشاهد أو المثال ؛ بل يتجاوز ذلك إلى الفصل بتمامه ، حتى عنوانه .

فمثلاً نجد الفصل الذى عقده فى « الإحياء » لبيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ؛ هو نفسه الذى فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الإحياء » ، لبيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة ؛ هو عينه الذى عقده فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الاقتصاد فى الاعتقاد » ، لبيان معنى رؤية الله هو عينه الذى عقده فى « معارج القدس » .

والفصل الذى عقده فى « الإحياء » ، لبيان مثال القلب بالإضافة إلى العلوم ؛ وذكر فيه الحجاب المكون من الأمور الخمسة ، التى تحول بين مرآة القلب ، وبين الألواح المحفوظ المذكور فى « معارج القدس » .

ثم إن الأبحاث المتعلقة بتعداد قوى النفس ، من الخيلة ، إلى الذاكرة ، إلى غير ذلك . والمقسمة للعقل إلى عملى يتعلق بالجنبه السفلى ، ونظرى يتعلق بالجنبه العليا ، والمعددة لأمهاث الفضائل ، والردائل ، كل هذه الأبحاث موجودة بصورة واحدة فى كل من « الإحياء » و « ميزان العمل » و « معارج القدس » .

وأيضاً البحث الذى ذكره فى « الإحياء » من أنه لا فارق بين العلماء النظار وبين المتصوفة ، فى نفس العلم ، ولا فى محله . ولا فى سببه ، وإنما الفارق فى جهة زوال الحجاب ، المذكور فى « معارج القدس » .

وأحياناً لا يقتصر التكرار على الفصل أو الفصول . بل يكون الكتاب كله مكرراً لكتاب آخر . فمثلاً كتاب « الأربعين فى أصول الدين » كتاب مسابير للإحياء ، مسابرة تكاد تكون تامة ، حتى فى تعداد الأبواب ، وأسمائها ، وربما لا يكون بينهما فرق . إلا بالاختصار فى أحدهما . والتطويل فى الآخر .

(١) ص ٩٥ .

(٢) ص ٨٩ .

ولقد تعددت الإكثار من هذه الشواهد من ناحية ، واتخاذ كتاب « معارج القدس » طرفاً في هذه النسب من ناحية أخرى ، ليكون دليلاً آخر مضافاً إلى ما سيأتى من الأدلة ، على صحة نسبة كتاب « معارج القدس » إلى الغزالي .

٢- الإكثار من الشواهد الدينية ، ومحاولة رد كل البحوث ، حتى الفلسفى منها ، إلى أصل دينى ، فيخيل للقارئ أنه بصدد موضوعات لا تمت إلى غير الأبحاث الدينية بصلة .

فمثلاً نظرية أفلاطون في تقسيم النفوس إلى ثلاث قوى ، ورد أمهات الفضائل والردائل إليها ، لا تحتاج من الغزالي إلى كبير عناء ، حتى يستخرجها من قوله تعالى : [إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون] .

[فالإيمان ^(١) بالله وبرسوله من غير ارتياب ، هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء ، الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل] .

ونظرية الوسط : لا يعجزه أيضاً أن يردها إلى الآيات والأحاديث [والذى ^(٢) يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خلق محمود شرعاً ، وهو وسط بين طرفى التقدير والتبذير ، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » ، وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

وكذلك المطلوب فى شهوة انطعام ، الاعتدال ؛ دون الشره والجحود . قال تعالى : « وكلوا ، واشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين » . وقال فى الغضب : « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « خير الأمور أوسطها » .

(١) ص ١٠٠ ج ٨ الإحياء .

(٢) ص ٤ ج ٨ الإحياء .

وهذا له سر وتحقيق ؛ وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب ، عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » ، والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما ، أى لا يكون متلفاً إلى المال ، ولا يكون حريصاً على إنفاقه ، ولا على إمساكه : فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق . كما أن الحريص على الإمساك ، مصروف القلب إلى الإمساك . فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يمكن ذلك في الدنيا ، طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين ، وأبعد عن الطرفين ، وهو الوسط ؛ فإن الفاتر لا حار لا بارد ، بل هو وسط بينهما ، فكأنه خال عن الوصفين .

فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير ، والشجاعة بين الجبن والتهور ، والعفة بين الشره والجمود ، وكذلك سائر الأخلاق] .

٣ - الإحالة :

لا تلبث أن تقرأ كتاباً واحداً ، من كتب الغزالي حتى تعرف جملة من أسماء كتبه ، لأنه لا يدع مناسبة لكتاب من كتبه تمر ، دون أن يشير فيها إلى ذلك الكتاب ، ويحيل عليه ، ولما أن موضوعات الكتب وأبحاثها ، متشابهة ، فكثيراً ما تعرض المناسبة .

وهذه الإحالة تدلنا في جملتها على أن الغزالي لم يهمل شيئاً من كتبه ، ولم يرجع عن شيء مما جاء فيها ، حتى تلك التي ألفها قبل اهتدائه إلى نظرية الكشف الصوفية ، التي تعتبر كل معرفة لا تأتي عن طريقها ظنوناً وتخمينات .

٤ - ضعف الأسلوب :

لا شك أن أسلوب الغزالي غير غامض ، وأفكاره واضحة جلية . تقرأ فلا ينجح عليك شيء مما يريد أن يقول .

ولكنك تحس في نفسك ، أن صاحب هذه العبارات ، كأنما كتبها ، وقبل أن يعاود قراءتها ، قدمها إلى قرائه . وما كان أحوجها ، إلى أن يعاود قراءتها ،

فيقدم في الحمل ويؤخر ، ويمحو ويثبت .

ولكن الغزالي لم تكن لديه الفرصة لكل ذلك ، لأنه كان يؤلف في أحوال ترحال وسفر ، وبليلة أفكار ، ومنازعات خصوم ، وقد اعتذر هو عن نفسه بهذه الأمور ، فقال في بعض كتبه ^(١) :

[فهذا الآن حديث يطول ، ويحتاج إلى إطناب وإسهاب . وقد أعلمتك . أتى مشتغل . مبدد لشمل النفس . كليل الخاطر] .

وبحق يقول الدكتور زكي مبارك ^(٢) عنه : « والرجل في الواقع معذور ، فقد كان يؤلف في أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ؛ لأنه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضى : من الصحة وهذوء البال] .

ولقد أدرك معاصرو الغزالي هذه الملاحظة ، ووجهوا نظره إليها . فأجاب : بأنه لم يعن بالألفاظ وتنميقها . بل بالمعاني وتجويدها . وأذن لمن يجد خطأ أن يصلحه . وفي رأيه أن مثل هذا الخطأ غير ممكن الإصلاح . لأن إصلاحه أن يصاغ المعنى من جديد ، صياغة أخرى . وهنا لا يمكن أن يقال إنها عبارة الغزالي ولا تأليفه .

رابعاً : جرى الغزالي في كتبه التي يقدمها للناس . يقصد بها هدايتهم وإرشادهم ، أن يقبهما على أساس قويم من الدراسات النفسية .

فالناس في نظر الغزالي ، متفاوتون في الاستعداد العقلي . والدين في نظر الغزالي . سمح سهل ؛ لا يمكن أن ينظر إلى الناس جميعاً ، مع اختلاف مداركهم وأستعداداتهم نظرة واحدة . فيكلف كليل الذهن فوق طاقته من المباحث النظرية ، أو يحظر على الطلعة المتوثب ، الذي يستطيع البحث والنظر ، أن يشبع عقله بالبحث والنظر . لذلك يقول ^(٣) :

[قال الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك ، بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » .

(١) معراج السالكين ص ٩٥ .

(٢) في كتابه « الأخلاق عند الغزالي » ص ١٢١ .

(٣) ص ١٦ من كتاب « القسطاس المستقيم » .

فعلّم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم .
 فإن الحكمة إن غدى بها أهل الموعظة ، أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع ، التغذية بلحم الطير .

وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة : اشمأزوا منها ، كما يشمئز طبع الرجل القوى ، من الارتضاع بلبن الآدى .

وإن من استعمل الجدل مع أهل الجدل ، لا بالطريق الأحسن ، كما تعلم من القرآن ، كان كمن غدى البدوى بنخبز البر . وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر . وهو لم يألف إلا البر [.

وما دام الأمر كذلك فقد يختلف موقف الغزالي من الناس ، وقد يقدم لكل طائفة منهم من العلوم والمعارف ما يناسبها ، وفي هذا يقول^(١) : [الناس ثلاثة أصناف :

(أ) عوام ، وهم أهل السلامة البله ، وهم أهل الجنة .

(ب) خواص . وهم أهل الذكاء والبصيرة .

(ج) ويتولد بينهم طائفة ، هم أهل الجدل والشغب ، فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة .

أما الخواص فإنى أعابهم بأن أعلمهم الميزان القسط ، وكيفية الوزن به ، فيرتفع الخلاف على قرب . وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث نخصال :
 إحداها . القريحة النافذة ، والفتنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغيرة جبلية ، لا يمكن كسبها .

والثانية ، خلو باطنهم عن تقليد ، وتعصب للمذهب موروث مسموع ، فإن المقلد لا يصغى . والبليد وإن أصغى فلا يفهم .

والثالثة ، أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان . ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب ، لا يمكنه أن يتعلم منك^(٢) .

(١) ص ٨٦ من « القسطاس المستقيم » .

(٢) وهذه هى الشروط التى سأتى بشرطها الغزالي فيمن يباح له الاطلاع على كتبه التى سماها مفضولاً بها على غير أهلها .

والصنف الثانى ، البله ، وهم جميع العوام ، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق ، وإن كانت لهم فطنة ، فليس لهم داعية الطلب ، بل شغلهم الصناعات والحرف ، وليس لهم داعية الجدل .
فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة ، كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة ، وأدعو أهل الشغب بالمجادلة [.

وكما بين لنا موقفه من أهل الحكمة ، ومن العوام ، بين لنا فى موضع آخر من الكتاب^(١) موقفه من أهل الجدل ، فقال :
[وأما الصنف الثالث ، وهم أهل الجدل ، فإنى أدعوهم بالتلطف إلى الحق . وأعنى بالتلطف . ألا أتعصب عليهم . ولا أعنفهم ، ولكن أرفق وأجادل بالتي هى أحسن . وكذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم . ومعنى المجادلة بالأحسن ، أن آخذ الأصول التى يسلّمها الجدلى ، وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق ، على الوجه الذى أوردته فى كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد وإلى ذلك الحد . أى أقف .

فإن لم يقنعه ذلك ، لتشوفه بفطنته إلى مزيد كشف ، رقيته إلى تعليم الميزان]^(٢) .
أى رفعه إلى مرتبة أهل الحكمة .
وكما عرفنا الغزالى هنا بأهل الحكمة وبالعوام عرفنا فى موضع آخر من الكتاب^(٣) . بأهل الجدل فقال :

[وأعنى بأهل الجدل ، طائفة فيهم كياسة ، ترقوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة ، إذ كانت الفطرة كاملة ، لكن فى باطنهم خبث وعناد ، وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم ، أن يفقهوه . وفى آذانهم وقراً ، لكن لم يهلكهم إلا كياستهم الناقصة ، فإن الفطنة البراء ، والكياسة الناقصة ، شر من البلاهة بكثير] .
وهذا تصريح من الغزالى لا يحتمل التأويل ، بأنه يقدم للناس ألواناً مختلفة

(١) ص ٩٤ .

(٢) وهذا يبين لنا قيدة الاقتصاد فى الاعتقاد فى نظر الغزالى ، وأن المعلومات الواردة فيه ، لم يقدمها إلى الخاصة ، مع أنه أرق كتبه الكلامية ، بل أرق كتب الكلام على الإطلاق فى نظره .

(٣) ص ٩٥ .

من المعرفة . وتصريح أيضاً ، في أن من الناس طائفة تخفى عليهم الحقيقة ، لعدم طاقهم إياها .

لهذا ، فهو يقف منهم الموقف الذى يرى أن الشرع أمر به ، وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وكثيراً ما ردد في كتبه قوله صلى الله عليه وسلم :
[خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله] .
فثله كمثل الطبيب الذى يفد عليه جماعات المرضى ، فيخرجون ، ويبد كل واحد منهم بيان بنوع من الطعام والدواء ، لا يشبه ما بيد الآخرين ، فمن الخطأ أن يقال : أليسوا جميعاً مرضى !! فكيف اختلف نوع الدواء ونوع الغذاء !!
وفى هذا يقول الغزالي (١) :

[فلما رأيتك ورأيت رفقاءك من أهل التعليم ، ضعفاء العقول نزلت إلى حدك ، فسقيتك الدواء في كوز الماء . وسقتك به إلى الشفاء ، وتلطف بك تلطف الطبيب بمرضىه ، ولو ذكرت لك أنه دواء ، وعرضته في قدح الدواء ، لكان يشمئز عن قبوله طبعك ، ولا تكاد تسيغه .

فهذا غرضى في إبدال تلك الأسماء (٢) ، يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، وينكره من ينكره] .

والغزالي إذا كان قد جعل الكتاب الذى اقتبست منه هذه النصوص ، في مخاطبة رجل من أهل التعليم ، فإنه لا يخصه وحده بذلك ، بل هو يخاطب به كل من كان في مثل درجته من الفهم ، استمع إليه يقول في آخر الكتاب (٣) :

[فهاكم إخوانى قصتي مع رفيق ، تلوثها عليكم بعجزها ويجرها ، لتقصوا منها العجب ، وتستفعوا في إثبات هذه المحاولات ، بالتلفظ لأمر ، هي أجل من تقويم مذهب أهل التعليم ، فلم يكن ذلك من غرضي ، ولكن إياك أعنى واسمعي يا جاره] . . .

(١) ص ٦٠ من « القسطاس المستقيم » .

(٢) يعنى استبداله بالاصطلاحات المنطقية القديمة اصطلاحات أخرى كقوله « ميزان التعادل ،

وميزان التلازم ، وميزان التعاند » ص ٢٧ .

(٣) ص ١١١ .